

فن التّرسّل في أدب الشّيخ البشير الإبراهيمي الجزائري (رسالة الضب أنموذجا)

The art of dispatch in the literature of Sheikh Al-Bashir Al-Ibrahimi of Algeria. (the message of lizard model)

الدكتورة حورية بكوش

قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة العقيد أحمد دراية أدرار

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

houriabekkouche@univ-adrar.dz

Abstract:

Al-Bashir Al-Ibrahimi is considered a sheikh of the Arab sheikhs, who left rich literary traces, including his message tagged with the message of lizard. In this study, we deal with the message to introduce its contents and the characteristics of its writing. We divided the research into introducing the writer and then the art of dispatch. In addition, we discussed its implications, as we have made chapters for the message. We also exposed his way of writing it. Moreover, we attached the article to the message extract from his full collection.

Keywords: Lizard, the message, Al-Bashir Al-Ibrahimi, Algeria

١. تمهيد :

إنه ثاني اثنين إذ هما في فُتّة العَلَم يهديان الجوّاري المنشآت التّائّهات ويرتّلان آيات الصّلاح والإصلاح بغية الذود عن أمة تُهجها المرسوم الإسلام عقيدة وسلوكا والعربية لغة وبيانا.

هكذا ينطق التاريخ مشرقا بالبشير الإبراهيمي (١٩٨٩-١٩٦٥) بشيرا وداعيا كان، وسيظل برهانا دامغا على جزائر تصدح أرضها ضادا وإن وسوس غرقد الإستعمار بغير هذا اللسان .

ظلّ البشير الإبراهيمي منافحا عن لغة القرآن مبينا عن صقيل وجهها وزلال ماءها وصفاء مشربها وعلوّ شأنها حتى دانت له نواصيها، واجتمعت بيده أشطانها، فأحكم الظفر بطرائدها، وناله من مغامرها. فكانت بحق آثار البشير الإبراهيمي دررا عيبي البحر بحثا عن غواصها، ولما كانت له أحسن نضد عقدها في صدر الأدب الجزائري والعربي.

٢. مكانته الأدبية والثقافية :

تبدو مقارنة نصوص الشيخ العَلَم البشير الإبراهيمي ضربا من السياحة في لغة تكاد تدرس بعض معالمها. فالرجل يكتب بلغة أساطينها وأرباب بيانها، ولو قيّد له زمنا غير زمانه وظروفا غير ظروفه لربّما كان جاحظ عصره، والألمعي الذي لا يشق له غبار في المشرقين معا . فالرجل لم يكن أديبا متفرّغا لشؤون الأدب متخصصا في الكتابة والتأليف كما هو حال من عاصروه، بل إنّه كان العالم المصلح، والداعي المجاهد، والأدب عنده وسيلة العالم وبيان المصلح ورسالة الداعي وسيف المجاهد .

إنّ المتصفح لخزانة هذا العالم الفذ يجد نفسه أمام أديب تغلب نعيما في فنون النشر العربي مقالة وخطابة ورسالة وسيرة ذاتية وشذرات من أدب الرحلة وكاتب مقامة إن رضينا الركون إلى رأي الدكتور عبد الملك مرتاض الذي عدّه كاتب مقامة على طريقة الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)^(١) فله مقامة واحدة موسومة ب :

مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة . وطريقة الزمخشري التي يشير إليها الدكتور تتجلى في قوله: "إن طريقة الزمخشري التي ينبغي أن يمثل مذهباً قائماً بنفسه في المقامات، لا تهمل الحركة الشديدة والحوار الحي فحسب، إنما تهمل جانبا قويا في هذا الفن وهو الكدية"^(٢).

فلا بد وأن الرسالة تلك عدّت مقامة من حيث حافظت على خصائص المقامة في الإيقاع والجناس وما شاكله فحسب .

لم تكن هذه الوريقات كثيرا بسيرة الرجل وظروف حياته ذلك أنه ناطح عنان السماء شهرة واختصت كتب كثيرة بسيرته فضلا عما جاء في آثاره من حديث خص به مجلة من المجالات العربية عن حياته اطلق عليه اسم _ من أنا ؟ _^(٣)

بيد أني أوتر الوقوف مليًا عند منزلته العلمية والثقافية والأدبية .

فالإبراهيمي حسب ما ورد في سيرته ولسانه هو قد حظي بتعليم مكثف غزير ذلك أنه سليل أسرة علم تعاور على تعليمه والده السعدي ثم تفرغ لتلقيه شتى العلوم عمه محمد المكي المتفنن في علوم العربية ويقف البشير الإبراهيمي موضعا منهج عمه في تعليمه قائلا: (فلما بلغت سبع سنين استلمني عمي من معلّمي القرآن وتولى تربيّتي وتعليمي بنفسه فكنت لا أفارقه لحظة حتّى في ساعات النوم، فكان هو الذي يؤمرني بالنوم، وهو الذي يوقظني منه، على نظام مضطرب في الأكل والنوم والدراسة . وكان لا يخليني من تلقين حتى حين أخرج معه و أماشيهِ في الفسحة ...) (٤). الواضح أن عمه ومعلّمه أراداه علما وسلوكا وانضباطا ليس فقط كمّ معلومات ونظريات مجردة منفصلة عن سبل إحقاقها وتفعيلها في الحياة اليومية، (وكان لهذا الأسلوب المركز والمكثف آثاره الباهرة وثماره الياقة، إذ ما كاد البشير الإبراهيمي يبلغ من عمره تسع سنين حتى غدا يحفظ القرآن مع فهم مفرداته وغريبه، ويحفظ معه ألفية ابن مالك ومعظم كافيته، وألفية ابن معطي الجزائري، وألفيتي الحافظ العراقي في السير والأثر، ويحفظ جمع الجوامع في الأصول وتخليص المفتاح للقاضي القزويني، ورقم الحل في نظام الدول، ويحفظ الكثير من شعر عبد الله بن خميس التلمساني شاعر المغرب والأندلس في المائة السابعة) (٥)

لا بد وأن من اجتمعت له في بداياته كل هذه الحلول وحوت حافظته كل هذه الدرر كانت مسيرته من جنس بداياته فلا عجب إذن أن تكون لغة الرجل فيما هو آت قطعة مهربة من بطون الكتب العربية الأصيلة .

والحال كذاك والرجل في صباه يحيله عمه إلى دواوين فحول الشعراء ورسائل بلغائها حتى يحفظ كفاية المتحفظ للأجدابي الطرابلسي، وكتاب الألفاظ الكتابية للهمذاني، وكتاب الفصيح لثعلب وإصلاح المنطق ليعقوب السكيت وهذه الكتب الأربعة هي التي كان لها معظم الأثر في ملكته اللغوية (٦).

لا بد وأن من وعى هذه الكتب كلها درسا وحفظا أوتي ملكات مميزة والبشير الإبراهيمي يقر بذلك لا سيما وهو يبسط القول في طريقة عمه المتفردة في التلقين والتعليم التي اتسمت بالتركيز والغزارة والمواصلة والتفرغ التام للعلم (... ولم يكن من ذلك شيء يرهقني لأن الله تعالى وهبني حافظه خارقة للعادة، وقريحة نيرة، وذهنا صيودا للمعاني ولو كانت بعيدة ...)^(٧) والمتأمل لسيرة الرجل يدرك أنه ظل للعلم نهما، وللكتب هاضما و، لمجامع العلماء قاصدا لا يثنيه عن حضرة العلم ثانٍ ولا ينثيه عنها عازبٌ هو. واحسب أن طرق تحصيله للعلم ينبغي أن تأخذ بوافر عناية لتكون نهجا ومنهاجا يحتذى به وما بسط القول في ثقافته بسانح في هذا المقام الضيق بيد أي أوجز لأقول ما قاله أحد دارسيه: (طوعت له ثقافته وعلمه مدارك أسرار القرآن الكريم، والسنة النبوية وعلوم التشريع الإسلامي سبر أغوار اللغة العربية فانقادت له فتبحر فيها، ودرس بها وألف فيها، وعالج فنونها اللغوية ومعضلاتها في نحوها وفقهها وصرفها، علاوة ما أوتي فيها من قوة البيان وبلاغة المعنى في أسلوب رائع جذاب، فساعد ذلك على خوض معركة الدفاع عن العربية، ودمغ مناوشات أعدائها فكان يحيط إحاطة تامة بعلم التاريخ العام وعلم النفس وعلم الاجتماع ...)^(٨). والواقع أن الرسالة التي نحن بصدد مدارستها قد عضدت هذا القول بما فيه من أحكام فضلا عن علوم أخرى وشت رسالة الضب بضلوعه فيها كأنساب العرب وعلوم الطب وعلم الحيوان .

و الشيخ الإمام كانت ثقافته الواسعة تتلفع ببردة أخلاق تكسوه لا تفارقه تدني منه من عرفه وتغري بالقرب منه من سمع خبره . لسان حق صارم بتاركان الإمام، ومربي فاضل عظيم، يشحذ الهمم ويعلو بالناس للقمم . فعرفه أعلام عصره من المشرقين معا وذكره بتعظيم وإجلال فقد كان العقاد يعتز به كثيرا وهو زميل له بالمجمع العلمي بالقاهرة ويدعوه أستاذنا إقرارا بضلوعه بالعربية وعلو عمود خيمته عن باقي الربع .

وعرف بالأستاذ الإمام كما عرضت عليه مشيخة الأزهر الشريف من قبل السلطة المصرية آنذاك ولم يقدم على ذلك بل اكتفى بالعضوية في بحوث الأزهر^(٩).

ولقب الأستاذ الذي لازمه حصل عليه بالمبايعة العلنية من قبل علماء أجلاء ألقوا إليه بمقاليده العربية منهم الدكتور منصور فهمي وهو أستاذ طه حسين وزكي مبارك وكذا الأستاذ كامل الكيلاني الذي بايع إمامنا أستاذا . وحتى لقب من قبل بعض الأدباء العرب بمحمد عبده المغرب .

لذلك ما كان بالغريب أن يؤمن تأبين العظماء والعلماء وتفرد له قصائد الرثاء وتبين الصدور في تأبينه عن تأبي الزمن على أن يأتي بصنوه . فدعا طه حسين _والرجل علم في عصره_ إلى تأبينه في مجمع اللغة العربية ونعاه مجمع دمشق وبكتفه شعرا بنت الشاطيء في الأهرام مختصرة عباراتها وعبراتها في قولها رحل البشير^(١٠).

وآثار البشير الإبراهيمي كثيرة تنوعت بين مكتوب على مستوى الجرائد والمجلات الوطنية والعربية وبين محاضرات ودروس كثيرة في أصقاع عديدة لم تسعف ظروف العصر آنذاك لجمعها . وكتب كثيرة . والمؤكد أن كتابات الشيخ الأستاذ تدرج ضمن مجالات ثلاثة ؛ مجال الدراسات اللغوية، ومجال الدراسات الأدبية، ومجال الدراسات الإسلامية، وعناية هذه المداخل تنصب في مجال التصنيف الأدبي وبالأخص في مجال فن الترسل .

ما حظ الأدب العربي من خيرة وزيدة ما جاد به الشيخ في هذا الفن ؟

٣. فن الترسل في كتابات الشيخ البشير الإبراهيمي :

فن الرسائل قديم احتفى به الأدب العربي وصنفت في شأنه المصنفات ولقي من الدارسين أيما عناية ويعد القرن الثالث ثم الرابع الهجري قمة ازدهار هذا الفن النثري ذلك أن الأمة الإسلامية ازدهرت آنذاك في مختلف الميادين والمجالات فساق ذلك التطور الأدب بكل فنونه إلى الازدهار . وقد اشتهر في هذا الفن من الأدباء العرب الجاحظ والهمداني وابن عباد وابن العميد وعبد الحميد الكاتب . لعل عنايتنا موصولة بما وجده القلقشندي في كون الترسل يأخذ معنى كتابة الإنشاء وفي ذلك يقول : (فأما كتابة الإنشاء فالمراد بها كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام، وترتيب المعاني من المكاتبات، والولايات والمساحات،

والإطلاقات، ومناشير الإقطاعات، والهدن، والأمانات، والأيمان، و ما في معنى ذلك ككتابة الحكم و غيرها)^(١١).

أما أنواعها فنجمل القول في انها :

● **الرسائل الديوانية او السلطانية** وتتسم بخلوها من الأسلوب المتأنق والصياغة الأدبية إلا ما ندر . ف (رسائل الجهاد التي يوجهها الخلفاء إلى قوادهم يكلفونهم فيها بالغزو ويزينون إليهم الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته، اعتمدت هذه الرسائل على المعاني الدينية، فكان الكاتب يضمنها الآيات التي تتحدث عن تكاليف الجهاد باعتباره فريضة شرعها الله لحماية دينه وإعلاء شأنه، كما كانت تتحدث عما ينتظر المجاهدين من ثواب و نعيم في الدارين)^(١٢). إذن محال ان تخلو من أناقة الأسلوب وجيد الصوغ وحسن التوقيع لا بد وأنها تقتضي عناية بلغة تستميل العواطف الدينية وتشجّد الهمم .

● **الرسائل الإخوانية** : وهو مجال خصب فسيح للإبداع فيه يقول القلقشندي : (الإخوانيات جمع إخوانية نسبة إلى الإخوان، والمراد المكاتبة الدائرة بين الأصدقاء)^(١٣) وقد عدد القلقشندي أنواع الرسائل الإخوانية حتى أوصلها إلى سبعة عشر نوعاً هي: (التهاني، والتعازي، والتهادي، والشفاعات، والتشوق، والاستزارة، واختطاب المودة، وخطبة النساء، والاستعطاف، والاعتذار، الشكوى، واستمache الحوائج، والشكر والعتاب، والسؤال عن حال المريض، والأخبار، و المداعبة).^(١٤). ورسالة مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة — السابق ذكرها — تدخل ضمن هذا النوع كونها تعزية وتأبينية للفقيد الشيخ عبد الحميد بن باديس .

وهذا النوع من الرسائل حظي بعناية خاصة كونه ألصق بالجملة الإنسانية ومرتع خصب

لينفث المصدور فيه :

(وتنافس الكتاب في إظهار براعتهم في هذا اللون من الرسائل، فوفروا لها عناصر المتعة الفنية من تصوير وصياغة وموسيقى؛ فجمعت بين المتعة الوجدانية، والمتعة الفنية، وأحدثت

بذلك تأثيراً قويا في نفوس الناس مما جعل بعض الشعراء ينجذبون إليها ويتخذونها وسيلة لتصوير عواطفهم بعد أن أصبح كثير من الناس يفضلون المنشور على المنظوم.^(١٥) والرسائل الإخوانية بحق هي رسائل فنية أدبية تجمع بين المتعة الروحية وجمال الصيغة.

- **المناظرات** تعد نوعا من الرسائل لعل أشهرها رسالة السيف والقلم لأبي حفص بن برد الأصغر التي وردت في كتاب الذخيرة .
- **رسائل الدعابة والهزل**: تعد من طرائف ما حوته خزانة الأدب الأندلسي على وجه الخصوص .

- **الرسالة الأدبية أو الفنية**: تحمل زمرة من الرسائل صفة الفنية حين تحفل بالصنعة والصياغة وتقيم وزنا للعاطفة فالرسالة التي تبلغ درجة راقية من الصياغة الفنية والظواهر الجمالية من تنسيق في الأسلوب، ونزعة ذاتية تفيض فيها العاطفة حرارة، وتشكل فيها الصورة النثرية بمضمونها المؤثر، وسط دياجعة إنشائية وصناعة بديعة وربما راح بعض هذه الرسائل يلتمس طريق المقامة العربية في الصنعة الكتابية^(١٦) ولعل هذه الصناعة الفنية في رسائل الإبراهيمي هي التي أوحى لبعض الدارسين في الأدب الجزائري أن يسمى إحدى رسائل الإبراهيمي مقامة^(١٧) وأنه هنا إلى أن هذه الرسالة أو المقامة إخوانية من حيث موضوعها وعواطفها وغرضها وأدبية فنية من حيث عنايتها بالبناء الفني لذلك هذا التقسيم الذي أوردته ليس تقسيما من باب الفصل ونقاء النوع وخلوه من مشتركات بل أكثره تقسيما أردته إطلالة سريعة على هذا الجنس النثري وبعض ضروبه .

والبشير الإبراهيمي يعد رأسا في هذا الفن النثري في الجزائر ذلك أن نكته _ نكبة هذا الفن _ وخسارته فادحة في الأدب الجزائري حسب ما خلصت إليه من تناول الأستاذ عبد الملك مرتاض إذ يرى أن رسالتي البشير الإبراهيمي _ **مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة ورسالة الضب** _ أحسن ما كتب هذه الفترة كلها وكأنه يستلهما من عجينة استلالا ويردف قائلا : (فقد استطاع الإبراهيمي بما عهد فيه من جمال في التعبير وقوة في التفكير وموهبة في

التصوير وبراعة في الكتابة الأدبية بوجه عام أن يمنح هذا الفن قيمته، ويؤثّر مكانته في الجزائر فينطلق به من لا شيء إلى منزلة حسنة، فيرفع بذلك رأس النثر الأدبي في الجزائر إلى السماء في شيء من الاعتزاز والافتخار^(١٨).

اعتبر الأستاذ عبد الملك مرتاض ما سبق هاتين الرسالتين لا شيء في ميزان فن الرسالة لذلك عنيت هذه المداخلة بوحدة من هاتين الرسالتين .

لماذا رسالة الضب وما قصتها؟ وما خصائصها؟ وكيف اكتسبت فنيها؟ وما الجديد الذي حوته في جنباتها؟

يحاول الشق التطبيقي من المقال الوقوف توصيفا وتحليلا لمقاربة هذه الإشكالات بشقّي المناهج والأدوات الإجرائية المناسبة .

٤. مدخل وصفي إلى الرسالة :

رسالة الضب^(١٩) رسالة طويلة كتبها الشيخ في المنفى بآفلو سنة ١٩٤٠ إلى أحمد قصيبة (١٩١٩ - ١٩٩٤)^(٢٠) ومناسبة كتابة الرسالة كما هو واضح الشكر والامتنان بدءا على صنيع الرجل بولد الشيخ الإمام فالصبي بعد عودته من زيارة للشيخ قصيبة عاد بهدية مميزة ضبا محنطا وليس اصطناعيا كما أشار إلى ذلك عبد الملك مرتاض ذلك أن متن الرسالة تضمن صفة الهدية .

الرسالة بدءا من أول عتبة نصية فيها تشي بقوة ما حوته فالعنوان هو رسالة الضب . وقد وقفت مليّا عنده. بل إنه أكثر ما اجتذبتني لمدارستها فقولها رسالة الضب يختلف عن قولها رسالة عن الضب أو رسالة في الضب، جاء العنوان محملا بسحنة الترسّل العربي القديم تنثال علينا رسائل كثيرة؛ رسالة الغفران ورسالة الصاهل والشاحج ورسالة الملائكة لأبي العلاء المعري ورسالة التبريع والتدوير للجاحظ وتشارك هذه الرسائل مع رسالة الضب في ميزة خاصة تتمثل في غزارة مضمونها وتبحر مرسلها في شتى العلوم حتى تغدو شكلا من أشكال المقالات الحديثة، وتأليفا أكثر منه ترسلا. ومن الحيف أن تبقى حبيسة متلقيها بل إنها مبثوثة لعامة الناس لعموم النفع .

ثم أن قوله رسالة الضب بدا لي كما لو كان تعبيراً عن أن هذا الكائن الصغير رسالة ربانية عن قدرته تعالى لاسيما وأن متن الرسالة يحوي الكثير من عجائب هذا المخلوق . ثم أنها اتخذت من الضب حجة للتبحر في شتى العلوم لذلك لا عجب إن نعدّها رسالة علمية أدبية انتهج فيها نهج القدماء كالجاحظ في حيوانه^(٢١)

هيكل الرسالة متكون من مقدمة طويلة وخاتمة موجزة وثمانية فصول فيها من كل علم أو فن طرف .

فمن علم الحيوان إلى علم النبات فالفلسفة والفلك واللغة والأدب وفيها استعراض مهول لثقافته ومكنته العلمية وقوة حافظته لا سيما وأنه في إقامة جبرية لا ترافقه مكتبته .

يبدأ الشيخ الإمام رسالته على سنة المقدمات المتعارف عليها مبسلاً ثم ذاكراً رتبة المرسل إليه التي وضعها له الشيخ لا ما كانت له في واقعه إذ يقول له حضرة الفيلسوف ثم يضيف (ولا زلت أنعتكم في رسائلي إليكم بالفيلسوف تنادرا ومباشرة وتظرفاً)^(٢٢).

ثم بدأ يقدم لمضامين رسالته بحسن التخلص من افتتاحه بقوله متعرضاً للهدية أنه كاد يعاتبه على هذه الهدية غفلة منه لولا أنه وضع الضب أمامه وتأمل خلقته حتى يقول : (..لقد أذكرني ضبكم بما كنت أحفظه عمّا قيل في الضب وعلى لسانه وما ضرب من الأمثال المتعلقة به ...)^(٢٣).

ثم تأتي مضامين النص التي اختصرها في أفكار كالآتي :

إجمالاً المقدمة احتوت الأفكار التالية :

- مكانة الضب عند العرب .
- أثر الصحراء في نفوس العرب وتركيباتهم العقلية .
- مكانة العرب ومقدرتهم على الوصف (وصف الحيوان . النبات) .

والملاحظ أن تقسيم الإبراهيمي للرسالة على شاكلة فصول لا يقيم دليلاً على استقلال

كل فصل بمضمون معين .

ذلك أن الاستطراد وانثيال الأفكار وتزاحمها في ذهنه كان مدعاة ليعود كل مرة إلى سابق حديث .

وبقية الأفكار هي :

- الضب في الأمثال العربية.
- زعم العرب بحديث الحيوانات ومنها الضب.
- مُكن الضباب في الشعر.
- خصوصية التركيبة الجنسية للضب.
- عادات العرب في إطلاق الأسماء وعلم انسابها .
- ذكر الوزير المغربي .

تكون هذه أهم الأفكار وأوسعها تناولا في الرسالة وهناك أفكار جانبية تناولها كلمح ولع لم نأت على ذكرها .

ينبغي أن نشير إلى النقد الذي قد يوجهه دارس ما إلى الرسالة مدعيا أنها لم تقدم جديدا للنشر والترسل فإنها جمعت شتيت مادة علمية أدبية من بطون الكتب حول الضب وارتكزت على لغة قديمة حسنة السبك جميلة الوقع فما أضاف البشير الإبراهيمي شيئا :

- لقد رد عبد الملك مرتاض على هذا واعتبر هذا الحكم غير سليم للأسباب التالية^(٢٤) :
- لم تكن مكتبة البشير الإبراهيمي معه في منفاه فالمنطق أنه عوّل على حافظته .
- لم يكن ناقلًا للأدب العربي القديم ومحاكيا دون تصرف ولا إعمال خيال بل إنه حاول إضافة معلومات جديدة
- لم يقف عند وصف الضب وذكر خصائصه بل إنه ضمن الرسالة آراء حول المشاكل الاجتماعية وغيرها .

٥. الخصائص العامة للرسالة :

هذه الرسالة التعليمية التي حفلت بمعارف ومعلومات شتى أخرجت في قالب فني خاص، وامتاز مضمونها بملامح خاصة منها ما كان على نسق القدماء ومنها ما كان من

بنات أفكار الإبراهيمي . وأعتقد أن المتصفح للرسالة تأملا يدرك روح الجاحظ فيها فيبدو البشير الإبراهيمي لسنا جدلا مستطردا مستأنسا باللفظ غير غافل عن المعنى مدققا في تخيير لفظه مهتما بتقطيعات صوتية طريفة، واقعي النزعة، يخرج من باب ويلج آخر مستطردا في غير شعث، متوسعا في غير اطناب، وموجزا حيناً في غير اخلال. ويمكن بناء على هذا أن نعثر على خصائص طبعت هذه الرسالة :

أ - الاستطراد: أول ما يلفت انتباه المطلع على الرسالة هذا النسق من التأليف الذي يحسبه الجاهل الغفل شعثاً أو فوضى أو انفلات المعاني وتزاحمها عن المضممار وإذا كان الجاحظ مثلاً اعترف باستطراده وعده وقاية من الملل فإننا نحسب أن البشير الإبراهيمي استطرد في رسالته لأنها نظمت في ليلة واحدة . وعله كان يستأنس بما خزنته ذاكرته وحافظته وأججه مرأى الضب فانثالت الأفكار والمعاني فاستطرد فوجد نفسه من حديث عن الضب ووصفه في البداية الى ولوج في الصحراء وكونها آية من آيات الله (والحق أن الضب حيوان جزري، ولا تقل أنه صحراوي وأن الصحراء ليست خاصة بالعرب، فإن هذه الصحراء التي هي آية من آيات الله في أرضه،)^(٢٥)

ويعضي الى الحديث عن الصحراء ثم يعود بعد جولة ليتحدث عن وصف الحيوانات الضارية عند العرب متوسعا مستدلاً بأدلة وذاكراً مصنفات في وصف النبات باثاً حزنه من ضياع العربية وانسلال خيطها من بعض الألسنة في حزن وأسى باديان ثم يكابر لشأن العربية كما لو أن لها كالييت رب يحميها فيقول : (..ولا برطانتهم يقل شأن العربية ويخف وزنها)^(٢٦) . ثم يعود إلى الحديث عن الضب قائلاً : (ونعود إلى الحديث عن الضب ...)^(٢٧) . أحسب أن الاستطراد لدى البشير الإبراهيمي يعد دليلاً على اتساع ثقافته ومعارفه فها هو حديث عن الضب يفتح للمتصفح نوافذ شتى .

ثم أن الرسالة لم تكن لتعنى بسياق مطرد وهي في الأصل رسالة إخوانية لم يرد بها صاحبها إلا الاستئناس في حضرة صديقه ولو أريد لها غير هذا، لكان باب أولى أن يهتم بوضع العناوين للفصول وربما كانت أكثر طولاً وأغزر علماً مما جاءت عليه.

أما وضع لفظة فصل بين ما كتب لمرات عديدة فهو دليل آخر على شعوره بأنّه غادر الموضوع الأصل فيحاول العودة واضعا مسمى فصل ليوصل. بدليل أن بدايات الفصول جاءت كالتالي: نعود الى الضب ... ورجز الضب ... ومن مزاعم العرب في الضب ... وكما يستطيب العرب لحم الضب ... وتضرب العرب المثل بالضب .. ويزعمون أن للضب نركان ... ولما ذكرناه من علاقة العرب بالضب ,, عدا الفصل الأخير الذي هو بعينه باب بعيد عن الضب .

الرسالة كلها استطرادات وهذا فيض من غيض ما فيها .

ب _ الواقعية: إذ أنه يذكر الحقائق عارية بل هو يصف الأشياء كما هي دون تخرج ولا تأثم وتبدو واقعيتها في الرسالة في أكثر من موقف ورأي وفكرة :

- حديثه عن الضب وما يدخل في تركيبته الجنسية^(٢٨).
- قوله (....) واعتبر ذلك بتدجيننا _ ونحن بشر _ كيف اغتال خصائصنا ومقوماتنا، ومسح معنوياتنا حتى أصبحنا أخط من بعض الحيوانات^(٢٩).
- نقله لما في الواقع لما أورد المثل القائل لا تأكل السمك وتشرب اللبن . ودحض هذا القول بما هو كائن طبيا ثم تبسط في القول بواقعية واضحة حين ذكر جمعه بين اللبن والسمك دون ضرر لمعدته^(٣٠)

وواقعية الناثر عموما مضمونة أكثر من الشاعر وفي الرسالة هي الصق منها في فن آخر لاسيما إن كانت الرسالة إخوانية .

ج _ التقطيع الصوتي أو تلوينه :

كنا قد وقفنا آنفا عند من عد رسائل الإبراهيمي مقامات وخلصنا إلى كونها حافظت على التلوين الصوتي الخاص بالمقامة هذا التجانس والسجع الذي يحيل الرسالة إلى منظومة موسيقية . والحال لا يخفى في هذه الرسالة فتكاد كل عباراته معلبة في صوتي موسيقي خاص منحت أسلوبه طلاوة وحلاوة .

الإبراهيمي يسعى دوماً إلى إحداث ضروب من التوقيع محدثاً توازناً صوتياً، ولم يكن السجع ليسعفه لطول الرسالة وربما كان التزمه في قطع ثم تركه مخافة أن يسوقه السجع إلى صبّ الألفاظ فارغة المعاني في هذا القلب الموسيقي الخاص .

فاستعان بالسجع وبالتكرار حيناً وبالموازاة والازدواج حيناً آخر وبالجناس حيناً والطباق أحياناً ومثل لسجعه بقوله :

(..فو الذي خلق الضب والدب، وانبت النجم والأب، فخلق النوى والحب) (٢١).

وقوله (..ما لو خلعت عليه أيام الصبا جدداً، ونفضت عليه ماء الشباب مداداً ومدداً) (٢٢).

يرى الدكتور عبد الملك مرتاض أن جنوح الشيخ الإبراهيمي إلى السجع مرده حفظه لأطراف من نهج البلاغة ومتون المقامات وأحاديث الأعراب ويؤكد عدم تكلفه أو تصنعه (٢٣) أما الازدواج فمائل في أكثر من موضع في الرسالة مانحاً إيها هذه الموسيقى العذبة :

يقول: (ولو علموا أن العرب تقول خطيب وعوع فيكون مدحا وخطيب وعوع فيكون ذماً . ولهم في كل كلمة مرمى من الاشتقاق مصيب وهو باب من أبواب وفص من كتاب وقزعة من سحاب، لأقلعوا عن غيهم وكفوا عن غلوهم ..) (٢٤) فانظر التناسق والتساوي بين الجمل المسطر عليها . وهو تقطيع موسيقي لطيف

هذا فضلاً عن التكرار والترادف الذي حفلت به الرسالة :

كقوله : (ولإمام هذا النوع أبي حنيفة الدينوري كتاب النبات وهو البحر الذي لا ساحل له وهو مفخرة اللغة العربية بلا منازع، وهو الكنز الذي لم يرزأنا الدهر بأنفس منه ولا أئمن ولا أغلى، وإن مصيبتنا به لتفوق مصائبنا في الأعلاق الثمينة وإن خسارتنا له لخسارة يعز عنها العوض ...) (٢٥) انه نفس واسع لا يعرف العثرة ولا اللجلة يعضده قدرة على الترادف والتكرار الذي منحه الرسالة هذا التقطيع الموسيقي .

فالفكرة كما نرى لا تؤدي في عبارة واحدة بل يستعان بالتكرار كأداة جمالية لبث المعنى في غير اقتصاد ألفاظ .

فلننظر قوله عن المثل السائر أعقد من ذنب الضب : (وأن هذا المثل لأشهر من "قفا نبك .." وإنه لمضوغ بكل لسان، ممجوج على سن كل قلم، تقرأه في كل صحيفة وفي كل كتاب ,,) ^(٣٦) أراد صاحب الرسالة أن يقول بشهرة هذا المثل، فلم يؤد الفكرة في عبارة واحدة بل كرر محدثا تقطيعا حسنا . مستعينا بالترادف والتكرار .

أما التقسيم فنجد ماثلا في مواضع كثيرة طبعت الرسالة كقوله : (....ومن هنا جاشت نفوس العرب وتفتقت قرائحهم من روائع الفلسفة الوصفية للصحراء وأرضها وسماؤها وليلها ونهارها وأغوارها وأنجادها وبراريها) ^(٣٧) وهو تقسيم مسجوع يلفت الأسماع إليه.

د _ التلوين العقلي :

ربما كان هذا العنصر أهم ما حوته الرسالة فهي - كما أسلفنا الذكر - مرتع خصب لكل نهم للعلوم ففيها من كل علم بطرف , إنها طرائق شتى من الجدل والأدلة والبراهين والمقدمات والأقيسة مستعينا ببراهين عقلية وحسية .

فوجدته كما قال الدكتور عبد الملك مرتاض (,, قوي الشخصية، لا يقلد . قوي التفكير، يناقش الأمور بعقل فاحص، وفكر ثاقب، وإدراء كامل، كما نجده كثير المعلومات واسعها فنراه يعرض للمسائل الطبية . والقواعد النحوية.) ^(٣٨) ويمكن أن أحصي القضايا العلمية التي طرحها فنجد من المسائل الطبية : الجمع بين السمك واللبن الذي درج الناس على تلافيه ظنا منهم بخطورته فيقول ...

وما هو من الطب ولا قاله طبيب .. ^(٣٩).

أما إحاطته بعلم الحيوان ولا سيما بالضب ودقة تناوله له علميا تعد أعجوبة فلننظر قوله مثلا : التدجين يذهب بالكثير من الخصائص الطبيعية .. وكذا حديثه عن سنة في عالم الحيوان تسمى نظام التوالد النوعي والتلاقح ^(٤٠) وحديثه عن جماعات الحيوان كالأجل والرجل والسرب والعانة والقطيع ^(٤١)

ولون رسالته بالكثير من المعلومات عن علم النبات متطرقا إلى أسماء النباتات بشكل دقيق (ثث طباق وأء ،، وثمام وشيخ وقيصوم ثم غرب وشويط .^(٤٢) . وله في الفلك صولة وفي سر اللغة العربية جولات وصلوات .

والحديث عن الأمثلة العربية ومناقشتها بين رفض قطعي لبعضها واستحسان لأخرى باب افرد له الإبراهيمي الكثير من الجهد في رسالته، واتخذ واحدا من هذه الأمثلة عتبة للتشكيك في قضية نحوية سائرة ألا وهي الجر بالمجاورة أو التبعية إذ يقول عن المثل هذا جحر ضب خرب أنه مثل فج صامط . لأنه لا يتفق _ حسب زعمه _ مع العربية الشائعة وهنا فصل في الأدلة والبراهين بيد أنه ختمها بتواضع علمي يسم الشيخ إذ يقول بعد أن افرغ جام رفضه وسخطه للقاعدة اذ يقول ضاربا كل الجهود النحوية القديمة .. وهو من شذوذاتهم اللغوية وانحرافاتهم عن مقاييس لغتهم^(٤٣)

وربما اختط لنفسه مذهبا يخالف به النحاة إذ رأى أنه ينبغي أن تكون الأمثال جملا حكيمة ذات معان مستقيمة وألفاظ قويمة حتى يحصل الحفاظ على الفائدتين. الحكم اللفظي والمعنوي...^(٤٤)

وأحسب أن التلويح العقلي في الرسالة بحث بعينه ينبغي أن تتلقفه عين عقل واعية وأذن باحث صاغية. إذ أن الرسالة حبلى بالأحكام في علوم وفنون شتى .

ه _ التناص : قطع ماعز في بطن هذا الهزبر . إن الرسالة عصارة تعالقات وتفاعلات نصية يختيء في نص الإبراهيمي وحافظته وذاكرته وكل ما التهمه مقرضه الحاد . ومن آليات التناص التي لجأ إليها الإبراهيمي :

● **الاقتباس :** لم يوظف الناثر القرآن بشكل صريح ولكنه متأثر به في أكثر من

موضع في إنشائه لا سيما صوتيا حين يضع الفواصل كما هو الحال في القرآن

. الحب والنوى .. مددا مدادا ... أما السنة فقد اقتبس حديث النبي صلى الله

عليه وسلم لما امتنع عن أكل الضب فسئل : أحرام هو يا رسول الله ؟ فقال :

لا أحرم ما أحل الله ولكنه ليس بأرض قومي وإن نفسي لتعافه^(٤٥) . لكن البشير

الإبراهيمي بخصيصته التي ميزته في الرسالة لم يقف عند الحديث بل ناقشه مستندا إلى أدلة تاريخية وحسية ولا مجال للتوغل في مناقشاته بل إني احسب بحثي هذا نواة لبحوث شتى .

● **التضمين :** ضمن الإبراهيمي نصه الكثير من الأشعار والأمثلة فضلا عن نثر غيره ويمكن أن نحصي عشرين بيتا شعريا وثمانية أمثلة وعبارات مسكوكة كثيرة منها مثلا : خطيب وعواع . قفا نبك . وشببت عن طوق ...

فهذه مقتبسات نصية او مستنسخات وشت بقوة حافظته ومنحت نصه مرجعيات قوية.

● **الاستشهاد :** كما هو الحال في إيراده جزءا من رسالة المعري إلى أبي القاسم المغربي صاحب تلخيص إصلاح المنطق لابن السكيت : (وقد أكثر يعقوب من الاجتهاد في إقامة الأشهاد ... حتى ذكر رجز الضب ..)^(٤٦) وقوله ناقلا مقولا للزمخشري : ما الأعراب بالكشا _ أولع من القضاة بالرشا^(٤٧) .

● **التهجين والأسلبة :** ونراه يستعملها مازجا بين لغتين أو ملفوظين من نمطين مختلفين في قوله : مثال فج صامط مزج بين الفصح والعامي .

● **الحوار التفاعلي :** يعد أعلى مرتبة في التواصل مع النصوص والتعلق بها واستنساخها. أي إن المبدع لا يقف عند حدود الامتصاص والاجترار والاستفادة، بل يعتمد إلى ممارسة النقد والحوار وقد سبق وأن اشرنا إلى ذلك .

٦. الخاتمة:

رسالة الضب إذن رسالة علمية أدبية زاخرة عميقة بما كتبه البشير الإبراهيمي الغيور على لغته المعتد بعرويته المتمسك بلسانه المتواضع في طرحه الجريء في حجاجه إلا في ما لا يحتاج عليه بل به ؛ كتاب الله .

لم تجانب الرسالة الفنية فقد بلغت درجة عالية من حسن الصوغ الفني وتناثر الظواهر الجمالية وعذوبة الديباجة الإنشائية ،

وتقاطع هذه الرسالة مع المقامة واضح في احتفاءها بالسجع والمحسنات البديعية .

شخصية الناثر المترسل واضحة في تضاعيف الرسالة وهو في معرض الدفاع عن القيم أو هو يشخص ما يراه غير سوي . مما يمنح نصّه حضوراً وجدانياً .

في الأخير أقول أن الرسالة بحاجة إلى بحث مستفيض فمعجمها اللغوي زاخر بما صار في لغتنا الحاضرة غريباً حوشياً، وبما هو دقيق لا يفقهه إلا أهل الاختصاص وحتى أن وضع حقل لعلم النبات وحقل لعلم الحيوان وآخر لعلم الفلك ومعجم لأعلام اللغة وآخر لعلم انساب العرب يعد ملحقا مهما للرسالة .

ملحق بنص الرسالة :

40

رسالة الضبب *

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الفيلسوف ولدنا الأستاذ أحمد بن أبي زيد قصيبة حفظه الله...

وما زلت أنعتكم في رسائلي إليكم بالفيلسوف تنادراً ومباشرة وتطرفاً، وأنا لا أجهل أنكم تنطوون على شمائل فيلسوف أو تحملون روحه بالتعبير العصري، حتى جاءت هديتكم لأحمد على يدي وهي عبارة عن ضبب وورل محنطين بالنخالة لا بالموميا، فعابتكم - فيما أذكر - عتاب مغفل بما معناه:

أني شبيت عن طوق هذه الأحناش، وما كان ذلك العتاب إلا عنواناً على غفلي في ذلك الوقت - على الأقل - ثم فاء علي عازب عقلي وضائع فكري، ووضعت الضبب أمامي وتأملت خلقته مرّات في أيام، فوالذي خلق الضبب والدب، وأنبث النجم والأب، فخلق النوى والحب، لقد أذكرني ضببكم بما كنت أحفظه عما قيل في الضبب وعلى لسانه، وما ضرب من الأمثال المتعلقة به، ما لو خلعت عليه أيام الصبا جدّاً، ونفضت عليه ماء الشباب مداً ومدداً، لم أكن لأذكره.

فقد كان هذا الحيوان محظوظاً عند العرب دون كثير من الحيوانات الجزرية فدرسوا ظاهره وباطنه، وعرفوا طباعه فأكثرُوا فيه القول حتى بلغ هيامهم به، وتمنطقهم يذكره أن نحلوه بعض الخصائص الإنسانية، وزادوا فنحلوه فضيلة لا توجد في الإنسان ولا في غيره من الحيوان كما ستسمع.

• وجّه الإمام هذه الرسالة إلى تلميذه الأستاذ أحمد ابن أبي زيد قصيبة في مدينة الأغواط، بعد أن أهدى هذا الأخير ضبباً محتظاً للطفل أحمد نجل الإمام، وكان ذلك بتاريخ 11 شوال 1359هـ. (نوفمبر 1940).

وليس لأحد ما لهم في وصف النبات والشجر، وتحليل مكاسرها بالعجم «الغمز»، وتحقيق طعومها وخصائصها وتقسيم أنواعها وتسمية مفرداتها من شتّ وطباق وآء وتترم وتنام وشيخ وقيصوم ثم غرب وشويط ونيغ وسراء ومرخ وعفار، إلى غير ذلك مما بلغوا في تصويره في أشعارهم درجة تقرب من تصويره بالألوان، وقد اضطّرّ رواة اللغة ونقلتها في عهد التدوين إلى أفراد هذا النوع - وهو النبات والشجر - خاصة بالتأليف، فلا بُدَّ عبيدة والأصمعي ولأبي حاتم والنضر بن شميل ولكراع النمل ولأبي زيد الأنصاري ولكثير غيرهم كتب خصّوها وسَمّوها باسم النبات والشجر.

ولإمام هذا النوع أبي حنيفة الدينوري كتاب «النبات»، وهو البحر الذي لا ساحل له، وهو مفخرة اللغة العربية بلا منازع، وهو الكثر الذي لم يرزأنا الدهر بأنفس منه ولا أمن ولا أغلى، وإن مصيبتنا به لتفوق مصائبنا في الأعلاق الثمينة، وإن خسارتنا له لخسارة يعر عنها العوض، لولا سلوة تلك الشذرات التي ينقلها عنه أصحاب المعاجم مباشرة أو بواسطة، وإن هذه الكتب الخاصة بالنبات والشجر لبرهان مستقل قائم على مقدار اتساع هذه اللغة الشريفة وإحاطتها، ودليل من جهة أخرى على فضلها على المعارف البشرية، وجواب مسكت للذين يهرفون بتنقص هذه اللغة ويرمون بها بضيق العطن والقصور عن استيعاب المعارف، وتوبيخ مر لزعنفه من أبناء العرب العاقين الذين يلوون ألسنتهم بمثل هذا الكلام ويشايعون لجهلهم وفسولة أخلاقهم وانحراف أمزجتهم العربية، أعداءها على ذمها والزراية بها والتقليل من خطرها، وأنا لا أرى دواء لهذه الزعنفه التي ضلّت عن جهل إلا الاحتقار فما بفقددهم ينقص عديد العرب، ولا برطانتهم يقل شأن العربية ويخف وزنها.

وانهم عندي لأهل للرحمة بما جهلوا، لا للحسد على ما علموا، ولو علموا أو حفظوا فصلاً واحداً مما وضعته العرب لجماعات الحيوان وطوائفه، كالأجل والرجل والسرب والعانة والقطيع إلى آخر هذا النوع أو لأصواتها - وما أكثرها - لأشرفوا على بحر لجي يجدون عنده رطانتهم ضحضا غمراً، لا يغمر كعب إنسان، ولو علموا أن العرب تقول: خطيب وعُوع فيكون مدحاً، وخطيب وعواع فيكون ذمّاً، ولهم في كل كلمة مرمى من الاشتقاق مصيب، لو علموا ذلك ونحوه من أسرار الاشتقاق، وهو باب من أبواب وفصل من كتاب وقزعة من سحاب، لأقلعوا عن غيهم وكفّوا من غلوائهم، ولكنه الجهل يعمي ويصمي.

وإذا أردت أن تفهم بعض السر في خصيصة العرب في الوصف، فاعلم أن الصحراء لبستهم - ولبسوها - حتى أصبحت حياتهم جزءاً منها فأورثتهم ملكة التأمل، ولو سَمّيناها ملكة الحواس لكان هذا هو الصحيح ومنها جاءتهم دقة الحسّ ولطافة الشعور وصدق التصوير، ولا نشترط على التاريخ أن يأتينا بأمة أمية من أممه يطاول بها أمة العرب في هذا

الباب، بل نتنازل وندعوه لأن يأتينا بأمة من أمم الحضارة تستطيع أن تقف بجانب العرب في هذا الميدان.

«فصل»

ونعود إلى الحديث عن الضبّ، فأنا أعترف أنني ما حققت معنى المثل العربي المشهور «أعقد من ذنب الضبّ» إلا بعد دراستي لضبّكم، وأن هذا المثل لأشهر من «قفا نبك...» وانه لمضوغ بكل لسان، ممجوج على سن كل قلم، تقرأه في كل صحيفة وفي كل كتاب، وما أكثر العقد - والتعقيدات - في زماننا التي يحسن ضرب هذا المثل لها، ولو أن الذين يضربون هذا المثل تقليدًا واتباعًا رأوا الضبّ ورأوا ذنبه وتحسّسوا تلك العقد الشائكة في ذنبه، لكان تمثيلهم أوقع في نفوسهم ولكانت نفوسهم أشدّ تأثرًا به، وعلى مقدار التأثير يكون التأثير، ولعلموا مع ذلك إصابة العرب في مواقع التمثيل وراميهم في مضارب الأمثال، وأن في المخلوقات أشياء كثيرة ذات عجز أو عقد أو ابن، ولكن العرب آثروا الضبّ في التمثيل لأنه حيوان صغير مسالم لئلا المجسّنة كليل الظفر إلا عن حفر الكدى ليتقي لا ليتقي، ومع هذه الصفات الرخوة فذنبه معقد ذاك التعقيد العجيب، وهو شائك، وهو لحامله شكة وحامله منه شاكي السلاح، وقد حكى لي بعض من رآه يضرب به الأفعى حتى يقتلها.

وقد أكثر العرب من ضرب الأمثال بهذه الزواحف والحشرات الحقيرة، فكان ذلك تنويعًا بشأنها وتنبهًا للمتوسمين والباحثين في مخلوقات الله ليزداد المؤمن إيمانًا بالخالق ويزداد المتفقه فقهًا في حقائقها، ويزداد الباحث توسعًا في المعرفة، والمعرفة ميزة هذا الجنس.

وقد قالوا ضلّ دريص نفقه، وهو تصغير درص اسم لجرو الفار، وقالوا: «تخلصت قاتبة من قوب» للفرخ من البيضة، وهذا باب واسع في أمثالهم يقبح بالمتأدبين من ناشئتنا أن لا يجعلوا له حظًا من حفظهم وبحضهم، وأنا فقد رأيت الضبّ مسلوحًا ومطبوخًا - وإن لم آكل لحمه - عند البدو في نجد الغربية مما يلي المدينة المنورة، ورأيت عند دافة من أعراب الحجاز دفت على المدينة في عام ممحل فما أثارت رؤيته في نفسي إلا ذكرى أنه عرض على مائدة رسول الله ﷺ، فرفع يده فقيل له: أحرام هو يا رسول الله؟ فقال: «لا أحرم ما أحلّ الله، ولكنه ليس بأرض قومي - وإن نفسي لتعافه -» وفي هذا الجواب روايات، وإن خالد بن الوليد حين سمع هذا الجواب تناوله من بين يدي رسول الله ﷺ فأكله، ويؤخذ من جوابه ﷺ، أن الضبّ غير موجود بمكة في زمنه، ولم أوفق إلى سؤال أهل مكة عنه في زمننا هذا، ولو سألت لكان زيادة في العلم واليقين، لأن الحديث ظني، وإن تعددت طرقه واشتهر بإخراج الصحاح له.

وهذا التقصير الذي شاهده وشهدت به على نفسي ناشئ عن قصور في ملكة التأمل والبحث إذ ذاك، لأنها كانت مزاحمة بالأبحاث الدينية، وإن رواية هذا الحديث في مجالس الرواية لا تثير في النفس أكثر من الاهتمام بحكم أكل لحمه شرعاً، وهو اهتمام له حظ واعتبار في موضوعه وجوّه الخاص، ولكن المثال البارد الفج «الصامط»⁽¹⁾ الذي لا يثير في النفس اهتماماً بل يثير فيها اغتماماً هو المثال الذي تعلّمناه من كتب النحو، وهو قولهم:

«... هذا جحر ضب خرب» يمثلون به للجر بالمجاورة أو بالتوقم لا أدري، وإنما الذي أدريه هو أن هذا النوع من الجر مسموع عن العرب، وهو من شذوذاتهم اللغوية وانحرافاتهم عن مقاييس لغتهم، وهو مقبول منهم لكنه مقصور على ما سمع منهم، فلا يسوغ لنا نحن طرده من كلامنا حتى لا نفسد اللغة على أنفسنا بهدم القواعد الصحيحة والجري على غير منهاج، ولهذه الشذوذات في العربية فلسفة خاصة لم يشبعنا أحد بالحديث عنها حتى الآن، ولو وجدت متسعاً من الوقت لكتبت فيها ما يصحّ أن يكون نواة في الموضوع، إذا تعاهده الباحثون أصبح شجرة ذات أكل شهية. ولفيلسوف هذا الفن أبي الفتح عثمان بن جني جمل متفرقة في هذا الموضوع لكنها تنطوي على نظرات سديدة وتدلّ على انفساح ذرع الرجل في هذا العلم، وإذا كان هذا النوع من الجر مسموعاً موقوفاً على السماع فلست على ثقة من أن مثال النحاة مسموع من العرب وإنما هو مثال سوقي انتحلوه، ثم قلّد آخرهم أولهم فيه على عاداتهم، وهل يصحّ لهم أن يمثلوا لمسألة سماعية بمثال مصنوع؟ لا. ودليلي على أن المثال مصنوع أمران:

الأول: أن نطق العرب لا يساعد على ما ادّعاه النحاة فيه، لأن كلمة خرب التي يدعي النحاة جرّها جاءت مقطّعة في الجملة لم تعقبها كلمة أخرى، فإذا نطق بها عربي نطق بها ساكنة الآخر بلا شك، فمن أين يظهر الجر الذي ادّعوه فيها؟ ووددت لو ذكرت بعض نحاة العصر المقتونين بالمباحث اللفظية العقيمة في هذا التوجيه لأسمع رأيهم، وما عسى أن يأتوا به من حجج فارغة، وكم في كلام الفارغين من تسليية لهم وترجية للوقت وترويح للخواطر المكدودة بشرط أن يكون السامع موفور الحظ من الصبر.

والثاني: أن معنى المثال على برودته وجفافه لا يتفق مع ما يعرف العرب عن الضبّ من أنه لا يحفر جحره إلا في الكدى (جمع كدية) وهي جيبيل صلب الأرض متماسك التراب، ولذلك يضيفونه إليها كثيراً فيقولون: ضب الكدية، وضب الكدى، يستعملون هذا كثيراً في كلامهم، وفي مقصورة ابن دريد، بيت مختومة بضب الكدى ولا أذكرها الآن وليس عندي ما أراجعها فيه، وقد قال الشاعر:

(1) كلمة عامية معناها ثقل الظل.

سقى الله أرضاً يعلم الضب أنها بعيد عن الأدوية طيبة البقل
بنى بيته فيه على رأس كدية وكل امرئ في حرفة العيش ذو عقل
فقد وصف هذه الأرض التي اختارها الضب لسكنائه، بأن الضب - وهو الاختصاصي
في هذه الهندسة - كأنه يعلم أنها بعيدة من الآفات، وأكبر الآفات في نظر الضب السقوط
والانهيار والخراب.

وقال الشاعر الآخر فزاد المعنى المراد توضيحاً، وهو يتحدث عن الضب:

ويحفر في الكدى خوف انهيار ويجعل بيته رأس الوجين
والوجين: هو الأرض الصلبة الغليظة، ومن هذه الكلمة جاء قولهم: رجل موجن، قوي
عظام الأضلاع والصدر. ومنها مبيجة الثياب، آلة تدق بها، ومنها جلد موجن: مضروب بعد
الدبغ حتى تتداخل أجزاؤه وتلطف فيلين مع القوة. فهذا البيت شاهد على أنه «ليس جحر
ضب خرباً»، ولهذه الخاصية في اختيار الضب للكدى، تصفه العرب بصفة ملازمة فيقولون
«ضب دامي الأظافر» جمع أظفور. قال الشاعر:

تَرَى الشَّرَّ قَدْ أَفْنَى دَوَائِرَ وَجْهِهِ كَضَبِ الْكُدَى أَفْنَى أَنْامِلِهِ الْحَفْرِ

ومن تهكمات المعري وهمزاته، أن صاحبه أبا القاسم المغربي المشهور في علم
التاريخ والأدب بالوزير المغربي، اختصر في حداثته كتاب «إصلاح المنطق» ليعقوب
ابن السكيت، وأهدى منه نسخة إلى صفيته المعري، وكانت بينهما أسباب متينة
العري، فكتب له المعري جواب الإهداء رسالة من أبداع رسائله، وفيها نقد لكتاب ابن
السكيت على طريقة المعري الغربية في سخريته العجيبة يقول فيها، إن لم تخني
الذاكرة.

«وقد أكثر يعقوب من الاجتهاد، في إقامة الأشهاد - يعني الشواهد - حتى ذكر زجز
الضب وأن معداً من ذلك لجحد مَغْضَب، أَعْلَى فصاحته يُشْتَعَانُ بِالْقَرَضِ، وَيُشْتَهَدُ بِأَحْنَاشِ
الأرض، ما رُؤِبَةُ عنده في نفي، فما قَوْلُكَ في ضَبِّ دامي الأظافر...».

وهذه الرسالة الرائعة مطبوعة مصححة فيما طبع «كامل كيلاني» مع رسالة الغفران، فإن
كانت عندك فراجعها، فلعل الحافظة لم تضبط ألفاظها، ومحل الشاهد فيها لموضوعنا وصفه
الضب بما كانت تصفه العرب من أنه «دامي الأظافر» ولا سبب لذلك إلا حفره لجحره في
الكدى الصلبة، وهذه كلها دلائل على فساد مثال النحاة إعراباً ومعنى. ولا ننكر أن بعض
جحر الضباب تخرب، وقد خربت مدائن الرومان والفراغة فضلاً عن جحور الضباب، ولكنه

بارد جاف متخاذل خاذل لحافظه، إذ يوهمه خلاف الواقع، ومنه ومن أمثاله خذل المتأدبون بكتب النحو الذين قعدت بهم همّتهم عن التأدّب بلغة العرب من شعرهم وخطبهم، ولم يحصل واحد منهم ملكة صحيحة في هذه اللغة ولا ذوقاً صحيحاً في أدبها، والواجب في الأمثال أن تكون جملاً حكيمة ذات معان مستقيمة وألفاظ قوية حتى يحصل الحافظ لها فائدتين: الحكم اللفظي والمعنى الذي يترك أثراً في النفس، ومن مجموع هذه الأمثلة يتكوّن الأدب والأديب. وقد نعى ابن خلدون في زمنه هذا الذي نعيناه وانتقد من مزاولي النحو ما انتقدناه - وهو لعمرى - نقد صريح ما عليه غبار.

وانظر قولهم «لا تأكل السمك وتشرب اللبن» كيف لعب به الزمن وتعاوره الاستعمال حتى أصبح ما ليس بصحيح فيه صحيحاً وأصبح قاعدة طبية، وما هو من الطب ولا قاله طبيب ولا هو بصحيح في الواقع والتجربة ولا بمطردٍ ضرره على فرض وقوع ضرر منه في جميع الأمزجة، وقد استعمله النحاة مثلاً لحكم لفظي فأدّوا مرادهم به على أكمل وجه، ولكن لما لم يكن معناه صحيحاً أوقع أمماً وأجياًلاً في الخطأ، فحفظه الناس ونقلوه من الاحتجاج به على حكم أعرابي إلى الاستشهاد به على حكم حيوي، وأصبح الناس يتحامون الجمع بين اللبن والحوت عن عقيدة قزرها في نفوسهم هذا المثال، وإذا كانت في المبدأ معدة ضعيفة تتأثر من الجمع بين غداءين، فمحال أن تكون حجة على معد بني آدم في علم أو عالم الكروش.

أما أنا وحياتك - كما يقول الزاهري - فإنني ما رأيت أصلح لمعدتي من الجمع بين السمك واللبن والفضل لهذه الطبيعة التي لا تقلد في السفساف.

«فصل»

ورجز الضّب الذي أشار إليه المعري وانتقد على ابن السكيت الاحتجاج به أصله مزعم من مزاعم العرب التي لا حقيقة لها، إذ زعموا أن الحيوانات كانت كلها تتكلّم ونحلوا بعضها كلمات وجملاً وأبياتاً من الشعر، وليس وضعهم لما وضعوا من هذا من ذلك النوع المعروف عند جميع الأمم، وهو وضعهم أشياء على ألسنة الحيوانات إغالياً في الحكمة وتطرقاً لتربية النفوس البشرية وسوقها لفضيلة أو صدّها عن رذيلة، فإن هذا النوع من الأدب السامي هو نمط من التربية الصالحة كما في كتاب «كليلة ودمنة»، ولكن العرب كانوا يعتقدون هذا اعتقاداً، وإن لم يكن عامّاً فيهم. وفي شعر أمية بن أبي الصلت المتأله بيت في تقرير هذا المعنى، ولم أتذكر الآن ألفاظ هذا البيت، وقد سمعت من العوام وشاهدت من يعتقد هذه العقيدة.

ون فروع هذا المزعم عند العرب أنهم زعموا أن السمكة قالت للضب: وردًا يا ضب، فقال الضب:

أدبح قلبي صردًا لا يشتهي أن يردًا
إلا عرادًا عردًا وصلينًا بـردًا

فهذا هو رجز الضب وهو مبني على اعتبار صحيح، وهو أن الضب لا يشرب الماء، ولعله يكتفي عنه برطوبة الهواء الذي يستنشقه والعشب الذي يأكله، كما قالوا في الطباء التي تجتري عن الماء بما تأكله من حشيش رطب، ولذلك سُمي العرب هذه الطباء جوازي واحدتها جازية. ولهذه الكلمة ذكر مستفيض في كلامهم، وبها سُميت الجازية المرأة التي بنيت عليها قصة بني هلال أو بطلة الرواية.

«فصل»

ومن مزاعم العرب في الضب أنه أول من دلّ على نفسه، إذ كانت الحيوانات كلها تتكلم، فزعموا أن صائدًا مرّ بواٍ فيه ضب فلم يتوجّه إلى صيده، فخاطبه الضب بقوله:

انك لو ذقت الكُشى بالأكباد.. لما تركت الضب يعدو بالواد: والكشى جمع كشية وهي شحمة مستطيلة في الضب يقول آكله إنه لا ألد منها، ومعنى قوله - لو ذقت الكشى بالأكباد - لو أكلتها ملفوفة بالأكباد أو ممزوجة بها فهو - زيادة عن كونه دلّ على نفسه - أرشد إلى كيفية ونوع من أنواع الملفوف - وتذكرنا كلمة الكشى بكلمة للزمخشري من كلمته النوايح وهي: ما الأعراب بالكشا - أولع من القضاة بالرشا. وأنا أرى أن دعوى العرب لدلالة الضب على نفسه أو تزينه للناس أكله بطيب شحمه، أرى هذه الدعوى ترجمة غامضة لحقيقة كونية تكلم عنها الحكماء الباحثون في أسرار الكون والمستشرفون لحكمة الخالق في مخلوقاته، وهي أن الحكمة العليا في ألوان الفواكه الزاهية ذات التلاوين والتهاويل كالخوخ والإجاص والتفاح وغيرها في مقاديرها وأشكالها هي الدعاية إلى أكلها بمجرد النظر إليها من الإنسان والحيوان، فإن الرؤية بالعين تسبق الذوق باللسان وتبين الطعم واللذاعة. فتلك الألوان والأشكال هي دعايات تستهوي من فيه قابلية الأكل وتدعوه إلى التجربة، فإذا تمت التجربة صارت عادة في العقلاء وغيرة فيمن سواهم، ولولا هذه الدعاوى المستهوية في الألوان والتهاويل لما أقدم عاقل ولا غيره على تجربة شيء لم يعرفه لاحتمال أن يكون فيه داؤه لا غذاؤه، والحي إذا عرض له خيال الموت ذابت كل الاعتبارات في نفسه، وبعد هؤلاء العلماء والحكماء وجود هذا المعنى في الفواكه بمثابة المحافظة على بقاء نوعها وتسلسل نسلها، وهي السنة المعروفة في عالم الحيوان بنظام التوالد النوعي والتلاقح

الجنسي، فلو فرضنا وجود تينة واحدة في العالم في بقعة لا يوجد بها آدمي لكان من المترتب على هذا الفرض انقراض صنف التين بعد موت تلك الشجرة، ولكن تلك التينة قد أودعت فيها الحكمة ما يحفظ بقاءها النوعي بعد فنائها الشخصي، وذلك أن ألوان ثمرها تستهوي الطيور إلى أكلها ثم تزرع بذورها التي تخرج مع الفضلات في الصخور أو الأودية، فتنبث منها شجيرات صغيرة ثم تنمو وتثمر دواليك، وقل مثل ذلك في النخلة وغيرها. وكم رأينا في شقوق الصخور الشاهقة - حيث لا تصل يد إنسان - أشجارًا من التين عظمت حتى صارت دوحًا وما نبتت إلا من البذور الخارجة مع رجيع الطيور.

وعلى هذا فلا يبعد أن يكون قومنا العرب أدركوا ذروا من هذه الحكمة - وليس ذلك بعجيب منهم - فجعلوا دلالة الضب على نفسه تعبيرًا بلسان الحال عن هذه الحكمة، ولا شك أن الأكل الأول للضب ما أكله إلا بعد أن استهواه شيء فيه من سماته الظاهرة كالكشبة، وكم لله من سر خفي!

«فصل»

وكما يستطيب العرب لحم الضب حتى صار لهم أثرًا وخبرًا، كانوا يستطيبون أكل بيضه ويسمّون في لغتهم «المكن».

يقول المتنبي في وصف قوم من الأعراب:

خُرَّابٌ بادية غرثى بطونهم مَكْنُ الضباب لهم زاد بلا ثمن
والمتنبي ممن يحسن التبدّي والتعريب، ويحسن وصف البدو مدحًا أو ذمًا، وهذا البيت من هذا الطراز.

وقال شاعر آخر، وأظنه إسلامي يتعارب، ولست أتذكر اسمه الآن:

أكلت الضباب فما عفتها واني لأهوى لحوم الغنم
وركبت زيدا على تمرة فنعم الطعام ونعم الأدم
وقد نلت ذاك كما نلت فلم أرَ فيها كضبَ هرم
وما في البيوض كبيض الدجاء ج ويبيضُ الجراد شفاء القرم
ومكن الضباب طعام الغرث ولا تشتهيهِ نفوس العجم
وكيف لا يستطيب لحم الضباب ومكن الضباب من يقول شاعرهم، وهو عروة بن الورد:
عشبة رحنا سائرين وزادنا بقية لحم من جزورٍ مُملَح

إننا نعرف العرب ونعرف أنهم قوم يزنون الحياة بغير ما تزنها به أمم البطون والقروج، وموازينهم في الحياة تدور على قطب واحد وهو المحمّدة والذكر الحسن، وفي ذلك يقول أولهم - وما هو بالأول في هذا الباب - وهو يخاطب زوجته:

إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له أكيلًا فإنني لست آكله وحدي
أخا طارقًا أو جار بيت فإنني أخاف مذمّات الأحاديث من بعدي
ويقول آخرهم، وما هو بالآخر في هذا الباب:

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثًا حسنًا لمن وعى

«فصل»

وتضرب العرب المثل بالضرب في عدة غرائز، فيضربون به المثل في الحيرة فيقولون: أحير من ضب، ويزعمون - وهم أعرف الناس به - أنه إذا بُعِدَ عن جحره خبل ولم يهتد إليه على خلاف المعهود في أمثاله من سكّان الأبحار، وهو على خلاف المعهود في الطيور ذوات الأوكار، ويضربون به المثل في العقوق فيقال: «أعق من ضب»، ويفسّرون عقوقه بأنه يأكل حُسُولَهُ، جمع جُشَل وهي جراؤه الصغار وهو لِحْمٌ ونباتي مَعَا، واللحم هو الذي يأكل اللحم ويجمع على لواحم. يقولون لا آتيك سِنَّ الحسل يعنون التأبيد إذ يزعمون أن الحسل لا تسقط له سن.

«فصل»

ويزعمون أن الضب له نركان، أي ذكران واحدهما نرك، ويعدون هذا من فضائله وخصائصه، وكثيرًا ما فكّرت في هذا الزعم، ما يصنع بالتركين؟ أَيْكُومَ بهما معًا في آن واحد؟ ويلزم من هذا أن يكون لأنثاه فرجان، أم يستعمل أحدهما حتى إذا كَلَّ وفتر استعمل الآخر؟ كما يستعمل البطل سيفين على التعاقب احتياطًا لكلال أحدهما أو انثلامه، وإذا كان حقًا ما يقولون فلا نشك أن الخالق لم يخلقهما عبثًا، ولم أزل في ريب حتى قرأت حكاية عامل لخالد القسري، أهدى إليه في يوم نيروز سلة مملوءة ضبابًا وكتب معها أبياتًا في وصفها منها قوله:

ترى كل ذبّال إذا الشمس عارضت سما بين عرسيه سمو المخايل
جُشَلٌ له نركان كانا فضيلة على كل حافرٍ في البلاد وناعل

فوقعت في حيرة أخرى من قوله: سما بين عرسيه لما يفهم منه أن له زوجتين، ولعلّ من خصائصه - ما دام محلًا للخصائص - أنه خلق بتركين ليكُومَ كل عرس بترك،

ويكون اختصاصه بالتركين مرتبطاً باختصاصه بالعرسين، وزاد في الحيرة أن في غيره من الحيوان بما فيه الإنسان من له أكثر من عرس، وذكر الحمام والدجاج يسافد العشرات من إناثها، وليس لجميعها إلا نرّك أو ذكر واحد، وما دمتا لم نجرّب ولم ندرس دراسة استقراء. فلنقل ما قالته العرب إنها خصوصية أو فضيلة، ومن أحبّ شيئاً نحلّه ما شاء من الكمالات، ثم قرأت في بعض كتب اللغة: أن ذكر الضب يسمّى نرّكاً، وأن لكل ضبّ نركين وأن فرج أنثاه يسمّى قُرّة، ولأنّني الضب قرنتان، فإن صحّ هذا ظهرت الحكمة في التركين.

«فصل»

ولما ذكرناه من علاقة العرب بالضب سمّوا به على عاداتهم في التسمية بالأشجار والنبات والأحجار والحيوان، ولهذه الأسماء العربية المنقولة من أسماء الجماد والنبات والحيوان فلسفة خاصة كنت أملت فيها دروساً عديدة على تلامذة دار الحديث بتلمسان في 1357هـ، وكتبها عني التلاميذ وجعلتها مقدّمة لدرس أنساب العرب، وقد سئل بعض العرب، ما لكم تسمّون أبناءكم بأسماء قبيحة جافية، وتسمّون عبيدكم بأسماء حسنة كسرور ورباح؟ فأجاب العربي: إننا نسمّي عبيدنا لأنفسنا، أما أبناءنا فهم لعدونا. يعني أن العبيد للخدمة والمهنة المتزلية أو للقيام على الماشية، وكلها سلم واطمئنان، فكان المناسب هذه الأسماء المفرحة التي تجري مجرى الفأل.

وأما الأبناء فمرمى العرب من كثرة النسل الاعتزاز بهم والاعتماد عليهم في الغارات والانتصاف من الأعداء، وألّقت الأسماء بهذه المواقف: «جندل» و«نهشل» و«صخر» و«ليث» و«فهد» و«عوسجة» و«حرب» لأنها تثير في نفوس الأعداء خيالات من معانيها، ومن الغريب أن العرب لم تُسمّ ضبّاً بلفظ المذكر إلا قليلاً، وأغلب ما سمّت به ضبة بلفظ المؤنث وهو علم على عدة قبائل يطلقون عليها الضباب.

ومن أشهر من تسمّى بهذا الاسم ضبة بن أدّ بن طابخة وهي قبيلة مشهورة يعدّها النسابون الجمرّة الثالثة من جمرات العرب، وجمرات العرب هي قبائل استقرّت ولم تحالف غيرها لغزها ومنعتها، ولفظها مأخوذ من التجمّر، وهو التجمّع، وهذه الجمرات هي نمير بن عامر وضبة بن أدّ والحارث بن كعب، ويقول علماء النسب إن الجمرتين الأخيرتين انطفتا بالمخالفة لأن ضبة بن أدّ حالفت الرباب والحارث بن كعب حالفت مذحج، وبقيت نمير بن عامر جمرّة متقدّدة لم تحالف أحداً إلى أن جاء الإسلام، وكما تسمّى هذه القبائل جمرات تسمّى جماراً.

يقول الفرزدق: خطرت ورائي دارمي وجماري. ونسيت الشطر الأول. ومما يطربني من كلام الشعراء في ذكر الجمرة والجمار قول مهيار الديلمي تلميذ الشريف الرضي في إحدى قصائده:

يا ابنة (الجمرة) من (ذي يزن) في الصميم العذِّ والبيت الرحيب

ويا بني: إن مما آسف عليه أسفاً لا ينقضي، ضياع هذا العلم من بيننا، علم أنساب العرب وأيام العرب وأمثال العرب، وانها لكنوز من المعارف وأجزاء كاملة من التاريخ والأدب ومحال أن يزدهر الأدب العربي ويؤثر آثاره المرغوبة في ناشئتنا إلا إذا استكمل الأدباء هذه الأجزاء المفقودة.

وعلى ذكر اختيار العرب في التسمية ضبة دون ضب، أذكركم بكلام كنت قرأته لبعض علماء اللغة المتبحرين في فهم أسرارها، وهو أن العرب يلحقون تاء التانيث بصفات المذكر كثيراً كـ «علامة» و «فهامة» و «تكلامة» و «تلقامة» و «رحلة» و «هزأة»، وهي كثيرة في كلامهم، قال: وهم يرون فيما هو منها مدح إلى معنى الداهية، وفما هو منها ذم إلى معنى البهيمة العجماء، وهو كلام فقيه في العربية محيط بأسرارها ومقاصد واضعها وخلجات نفوسهم، وأظن أن صاحب هذه النظرية هو ابن الأعرابي أحد فقهاء اللغة المبرزين، ولا أقطع بذلك.

«فصل»

وقد جرى في هذه الرسالة ذكر الوزير المغربي، وهو رجل يقبح بمتأدب أن يجهله، وهو رجل غريب الأطوار بعيد الهمة عجز المؤرخون أن يحلّوا سيرته تحليلًا صحيحًا، ولم يقل لنا التاريخ إلا أنه مغربي، كان أبوه من رجال الدولة الفاطمية بمصر ومن دعائمه وخواصها، ثم قتله الخليفة الحاكم بأمر الله وهرب ولده هذا إلى القدس وأثارها شعواء على الحاكم بدهائه وكيدته، ثم تقلبت به الأحوال ودخل بغداد فأقام الخلافة العباسية وأقعدا خوفًا منه وتقلب فيها في عدة ولايات من كتابة ووزارة لبعض ملوك الطوائف فيها، ولا نشك في أن أصله من القيروان أو من هذه النواحي، ودخل أسلافه في ركاب الخلفاء الفاطميين إلى مصر حين فتحوها، وكان شعلة ذكاء وحفظ للآداب وأصناف المعارف، واجتمع بالمعري وهو صغير بحلب، فانعقدت بينهما ألفة متينة تستشف مما ترأسلا به بعد الفراق، وحسبك شهادة المعري دليلًا على مكانته في العلم والأدب، وقد غمض الكثير من تاريخه وتاريخ أوليته بغموض تاريخ الفاطميين. وكثيرًا ما أذكر هذا الرجل فأذكر بذكره أبا علي الملياني، أحد كتّاب الدولة المرينية وأصله من مليانة، فقد كان يشبه الوزير المغربي في الطموح إلى العلا وفي الاستبداد وركوب العظام، توه به ابن الخطيب في كثير من كتبه ووصفه في كتابه

«التاج المحلى» بقوله: الكاتب الباتك والصارم الفاتك، ثم ذكر من أفعاله الدالة على بعد همّته مكيدة كادها لبعض أعدائه، وفكّة فتكها بهم ظهر فيها دهاؤه وإقدامه، واشتهر بها تاريخ حياته وقال في آخر الترجمة:

وتركها شنعاء على الأيام وعازًا في الأقاليم على حَمَلَة الأقلام.

هذا ما جرى به القلم مما جر إليه ذكر الضّب الذي أهدبتموه لولدي الصغير، فأحسنتم بذلك إلى شيخ كبير، فقد تذكّر بسببكم بعض ما كان ناسيًا، وأبى إلا أن يشكر إحسانكم بكتابة هذا القدر إليكم عسى أن تستفيدوا منه فائدة، فيكون جزاء على تسببكم في الخير، ولو كان هذا لِحَدَثَانِ في المطالعات الواسعة أو في وقت الحداثة وامتلاء الحافظة، لكانت هذه الرسالة مزاحمة لرسائل القدماء في الإحاطة وجمع الأطراف.

ولكن عذري عندكم وعند من يطلع على هذه الرسالة فيجد فيها قصورًا أو وضعًا لبعض الأسماء في غير موضعها أنني أملتيتها في ليلة، وما أملاها إلا فكر قليل عن حافظة مختلة نسيت أكثر ما وعت وضّعت كثيرًا مما استودعت، مع اضطراب الحال واشتغال البال، وعسى أن تكون هذه الرسالة تذكّرة بالحال الذي كتبت فيه والبلدة التي صدرت عنها والزمان الذي أنشئت فيه؟

المصادر والمراجع الحواشي

- (١) ينظر د عبد المالك مرتاض . فن المقامة في الأدب العربي الدار التونسية للنشر المؤسسة الوطنية للكتاب ص ٢٦٠
- (٢) المرجع السابق ص ٢٤٨
- (٣) وردات سيرته في آثاره المجلد ٥ ص ١٦٣ - ١٧٠ . كما تطرق إليها الدكتور عباس محمد في كتابه الموسوم ب البشير الابراهيمي أديبا ديوان المطبوعات الجامعية وهران ص ٣٠ - ٧٥ فضلا عن دراسات أخرى يضيق المقام لذكرها هنا
- (٤) ينظر البشير الابراهيمي الآثار / جمع وتقديم نجله الدكتور أحمد طالب الابراهيمي دار الغرب الإسلامي بيروت ط ١ ١٩٩٧ ص ١٦٤ - ١٦٥ ومجلة الثقافة مقال بعنوان أنا ع ٨٧ س ١٩٨٥ ص ١٣
- (٥) الدكتور عبد الملك بومنجل : النثر الفني عند البشير الابراهيمي بيت الحكمة ط ١ ٢٠٠٩ ص ٢٢ .
- (٦) ينظر مجلة الثقافة ص ١٣ , وآثاره ص ١٦٤ - ١٦٥ هناك فروق بسيطة بين المقال الأصل ووجوده ضمن الآثار التي جمعه نجله
- (٧) محمد البشير الابراهيمي مصدر سابق ص ١٦٤
- (٨) محمد عباس، البشير الابراهيمي أديبا ديوان المطبوعات الجامعية ص ٦٥
- (٩) انظر المرجع السابق ص ٦٦ .
- (١٠) للتوسع ينظر المرجع السابق ص ٦٤ - ٧٦

- (١١) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٠هـ، ١٩٢٢ ص ٥٤
- (١٢) فوزي سعد عيسى، الترسل في القرن الثالث الهجري، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩١م، ص ١٨
- (١٣) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ٨، ص ١٢٦
- (١٤) المرجع نفسه ج ٩ ص ٥ وما يليها
- (١٥) فوزي سعد عيسى، الترسل في القرن الثالث الهجري، ص ٣٥ .
- (١٦) ينظر محمد عباس مرجع سابق ص ٢١٦
- (١٧) أول من أطلق اسم مقامة على رسالة البشير الابراهيمي في رثاء ابن باديس هو الأستاذ محمد المنصوري الغسيري
ت ١٩٧٤ وقد سماها المقامة البادية حسب ما جاء في عيون البصائر وأشار اليها الدكتور عبد الملك مرتاض كما
اشرت الى ذلك سلفا
- (١٨) عبد الملك مرتاض فنون النشر الأدبي في الجزائر ١٩٣١ _ ١٩٥٤ ديوان المطبوعات الجزائرية ١٩٨٣ ص ٣٠٩ -
٣١٠ .
- (١٩) رسالة الضب ضمن آثار البشير الابراهيمي الطبعة السالف ذكرها من ص ٤٠ _ ٥٢ الجزء ٢ .
- (٢٠) هو واحد من مناضلي الحركة الكشفية وواحد من رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانت له صلات قوية
بالبشير الابراهيمي في منفاه بأقلو
- (٢١) ينظر عبد الملك بومنجل مرجع سابق ص ٥٢ - ٥٣
- (٢٢) آثار الإمام محمد البشير الابراهيمي ص ٤٠
- (٢٣) المصدر ن ص ن
- (٢٤) ينظر عبد الملك مرتاض مرجع سابق ص ٣١٥ - ٣١٦
- (٢٥) آثار البشير الابراهيمي، رسالة الضب ص ٤١
- (٢٦) المصدر ن ص ٤٢
- (٢٧) م ن، ص ٤٣
- (٢٨) ينظر المصدر السابق ص ٤٩ _ ٥٠
- (٢٩) المصدر السابق ص ٤١
- (٣٠) ينظر م ن ص ٤٦
- (٣١) م ن، ص ٤٠
- (٣٢) م ن، ص ن
- (٣٣) ينظر نخضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر: عبد الملك مرتاض ش و ن ت الجزائر ط ٢ ص ١٢٧
- (٣٤) م ن ص ٤٢
- (٣٥) المصدر السابق . ص ٤٢
- (٣٦) م ن ص ٤٣
- (٣٧) م ن ص ٤١

(٣٨) عبد الملك مرتاض مرجع سابق ص ٣١٧

(٣٩) رسالة الضّب ص ٤٦

(٤٠) للتوسع رسالة الضّب ص ٤٧ — ٤٨

(٤١) رسالة الضّب ص ٤٢

(٤٢) للتوسع ينظر المصدر نفسه ص ٤٢ وما يليها

(٤٣) ينظر رسالة الضّب ص ٤٤ وما يليها فيها تفصيل للقضية

(٤٤) المصدر ن ص ٤٦

(٤٥) المصدر السابق ص ٤٣

(٤٦) المصدر ن ص ٤٥

(٤٧) م ن ص ٤٧ ,